

الإمام داود بن ادريس من خلال الوثائق التاريخية

عبد الهادي التازي

في البحث الذي قدمته للمؤتمر الثالث للأثار بالبلاد العربية (١) كنت أثرت الحديث عن « اللوحة » التي اكتشفت بالبلاط الأوسط في أثناء أعمال الترميم التي جرت بجامع القرويين منذ سنوات وقد كانت تحمل اسم داود ابن ادريس وتاريخ سنة ٢٦٣ . وكنت تساءلت عن مملكة الامام داود ، وكان قصدي دون ريب من هذا التساؤل هو أن نصل الى التقاء بعض الضوء على هذه المرحلة « الثقلة » من تاريخنا القديم ، وبعد هذا كنت نشرت كلمة (٢) ثانية أجدد فيها الأسئلة مرة ثخرى وأفترض مع هذا « شريطاً » على ضوء الأحداث . وحاولت أن أفهم أن الامام داود ظل بعد وفاة يحيى الأول مسيطراً على فاس سيما وقد خسر يحيى الثاني ووقته بها ، وسيما أيضاً ودولة خلفه على مجهولة البدء والنهاية ، وأنه أي داود استمر اماماً الى أن كانت دولة يحيى الثالث الذي أُغتيل سنة ٢٩٢ . وكانت هذه مجرد فروض تهدف الى « نبش » دفتان التاريخ في انتظار أن أتوفر على ما يبعث « الحقيقة » من مرقدتها . وسرني أن يجد البحث صداه ولو في طائفة جد قليلة ممن يجدون « هوية » في التاريخ ، وها نحن اليوم نقف على بعض المصادر الأخرى فيها

- (١) مجلة دعوة الحق المغربية عدد يناير ١٩٦٠ ص ٤٥ ، فصلة من مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ، العدد الرابع عشر ١٩٦٠ ص ٦٦-٦٨ .
- (٢) مجلة التربية الوطنية المغربية ، العدد الرابع سنة ١٩٦٠ ص ١٩ و ٢٠ . مجلة الفكر للترنسية عدد مارس ١٩٦٠ ص ٥٢٠-٥٢٣ .
- (٣) الأعلام للاستاذ غير المعين الزركلي ، المجلد الأول ص ٩٠ .

بعض النصوص التاريخية ، وفيها « نقود ادرسية » وفيها تعاليق لبعض
الاساتذة الأجانب ممن عونا بالدراسات التاريخية (١) .

وأحب بادىء ذى بدء أن ألتصق أمامكم « كتاب البلدان » لأحمد
ابن أبي يعقوب ابن واضح المعروف باليعقوبي والمتوفى أواخر القرن الثالث
الهجري ، لقد قال وهو يتحدث - أيام شبابه - عن ممانث المغرب :

« ومن (٢) مملكة صالح بن سعيد الحميدى يصير الى مملكة بني
ادريس ابن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي
طالب عليهم السلام ، وأول حد مملكتهم بلد يقال له عميرة (٣) ،
بها رجل يقال له عبيد الله بن عمر بن ادريس ، ثم الى بلد يقال له
ملحاض لخانة (٤) عنده يجتمع حاج انوس الأقصى وطنجة
ويعلمه على بن عمر بن ادريس . ثم قلعة مدينة وهو بلد عظيم
به محمد بن عمر ابن ادريس ، ثم من قلعة مدينة الى النهر العظيم
الذي يقال له لمهارة (٥) حصون وعمارات وبلد واسع عليه رجل
من ولد داود بن ادريس ، والى نهر يقال له سبو عبيه حمزة بن داود
بن ادريس بن ادريس . ثم يدخل الى المدينة العظمى التي يقال له
مدينة افريقيا على النهر العظيم الذي يقال له فاس (٦) بها يحيى بن يحيى
بن ادريس بن ادريس ، وهي مدينة جليلة كثيرة العمارة والمنازل
(٧) ؟ من الجانب الغربي من نهر فاس ، وهو نهر يقال : انه أعظم
من جميع أنهار الأرض عليه ثلاثة الف (كذا) رحا تطحن للمدينة
التي تسمى مدينة أهل الأندلس ينزلها داود بن ادريس ، وكل واحد

(١) Hesperia Ier Trimestre 1934 t. XVIII Fas 1 Page 4148

(٢) ص ١٣٧ من كتاب البلدان ، طبعة ليدن سنة ١٨٩٠

(٣) يرى الأستاذ لاوست ان فاس منقول عن كلمة ساف التي تسمى بالبربرية سفي الوادي

(المغرب - عدد أكتوبر ١٩٦٠) .

من يحيى بن يحيى ، وداود بن ادريس يخالف على صاحبه يدافعه
ويحزبه ، .

نرى من خلال هذا أن المغرب ما يزال كما عهدناه منذ سنة ٢١٣ أثر وفاة
ادريس فهو بين الشرفاء دائماً ، وفي بعض هؤلاء من صار نصيبه الى بنيه ،
لكن مع هذا اكتسبت عناصر جديدة بواسطة هذه القبول ، فلقد عرفنا أولاً
من أولاد عمر بن ادريس محمداً وعبيد الله ، بالإضافة الى ولده على الذي فر
في وجه « الخوارج الأباضية » (١) ، وبالإضافة كذلك الى ادريس والد
يحيى الرابع الذي سلب الإمارة سنة ٣٠٩ (٢) . وعرفنا ثانياً أن للامام داود
ابن ادريس عقياً تولى زمام الأمر بدوره في بعض الجهات من المغرب ،
ومن هنا العقب ولد لم يعطه العقبى اسماً لكن فيه ولد ثانياً عرف تحت اسم
حزبه . وعرفنا ثالثاً وهذا مهم أنه في الوقت الذي كان يوجد فيه يحيى بن يحيى
على « المدينة العظمى » (يعنى عبدة القرويين) في هذا الوقت بالذات ،
كان داود بن ادريس ينزل (مدينة أهل الأندلس ، وعرفنا أخيراً وهو أيضاً
مهم أن كلا من يحيى بن يحيى ، وداود بن ادريس كان يخالف على صاحبه
ويناوئه .

ونكي نلم بماتر القول نعطف على كتاب « البيان المغرب في أخبار
المغرب - لابن عذارى المكتوب سنة ٦٠٢ ، فلقد ذكر (٣) أنه لما ولى الامام
يحيى بن محمد بن ادريس ولى (أى يحيى هذا) أعمامه وأخوانه أعمالاً ، فولى
حينا اقبلة من مدينة فاس الى أغمات ، وولى داود المشرق من مدينة فاس :
مكناسة وهوارة والمدينة ، وولى القاسم غربي فاس : لماتة وكنامة ، وتشاغل
يحيى عما كان يحق له من سياسة أمره فللك أخواته أنفسهم واستمالوا القبائل ،
وقالوا لهم : « إنما نحن أبناء أب واحد وقد ترون ما صار اليه أخونا يحيى
من اضاة أمره فقدمهم البربر على أنفسهم تقديماً كاليا ، .

(١) - فرطاس ، طبعة الرباط الجزء الأول ص ١١٢

(٢) - لمصدر السابق ، ص ١١٧

(٣) - ص ١٢٢ المصدر المذكور .

(٤) - صفحة ٢١١ طبعة هولاندا .

وبعد كل هذا هناك وثيقة أخرى تعتبر من الأهمية بمكان ، وهي :
 « الدرهم ، الذي يوجد (١) للامام داود بن ادريس بالمكبة الوطنية بباريس .
 لقد استطاع أن يحتفظ بحل ما نقش عليه ، وهكذا نقرأ على دائرته :
 « بسم الله ضرب الدرهم بواطيل (٢) سنة .. عشرين وميتين » ، وفي سطحه
 وسطاً : « لا إله إلا الله وحده .. محمد .. لا شريك له .. علي .. »
 كما يوجد به على شكل هلال : « المتصر بالله .. محمد .. رسول .. الله ..
 داود بن ادريس .. علي » .

فن خلال هذه الوثائق كلها ، ومن خلال لوحة الأزر التي كشفت عنها
 أعمال الترميم ، والتي نقشت على عهد الادارسة ، أقول من خلال كل هذا
 يتأكد أن الامام داود ظل بالفعل - كما افترضنا سابقاً - مسيطر في تلك
 الفترة الغامضة من تاريخنا القديم أو بالحري ميطراً في بعض منها . بل اننا
 الآن امام وثائق تتضافر بعضها يثبت أن مملكة داود كانت تشمل في وقت
 ما مسافات شاسعة . وانها ابتدأت من حيث كانت بادىء الأمر من نازة
 وهوارة تاسمت (٢) أو تاملت (٣) ، ثم قصدت تدريجياً وجهة فاس ،
 ولأجل أن ندين بوضوح يعني أن نرسم أمامنا سلماً لبني ادريس الأولين
 مقرونًا بتاريخ أوفدة المحفوظ حتى نستطيع أن « نحصر » فترة سيطرة الامام
 داود « الختمة » على مدينة فاس :

يتضح من كل هذا أن تقسيم المغرب سنة ٢١٣ الذي تجدد بعض الشيء
 منذ حركة التمرد التي قام بها عيسى بن ادريس حيث اتسعت منطقة عمر بن
 ادريس ... كما هو معلوم - بالامتلاء على حظ أخويه التمام وعيسى ،

(١) La voix, catalogue de monnaies musulmanes de La Bibliothèque nationale page 69 No 921

(٢) لغرب في دكتور أفريقيا والغرب في ص ١٢٤

(٣) ابن عدري لخزانة الخزنة لأول من ٢٩٩ طعة بيروت

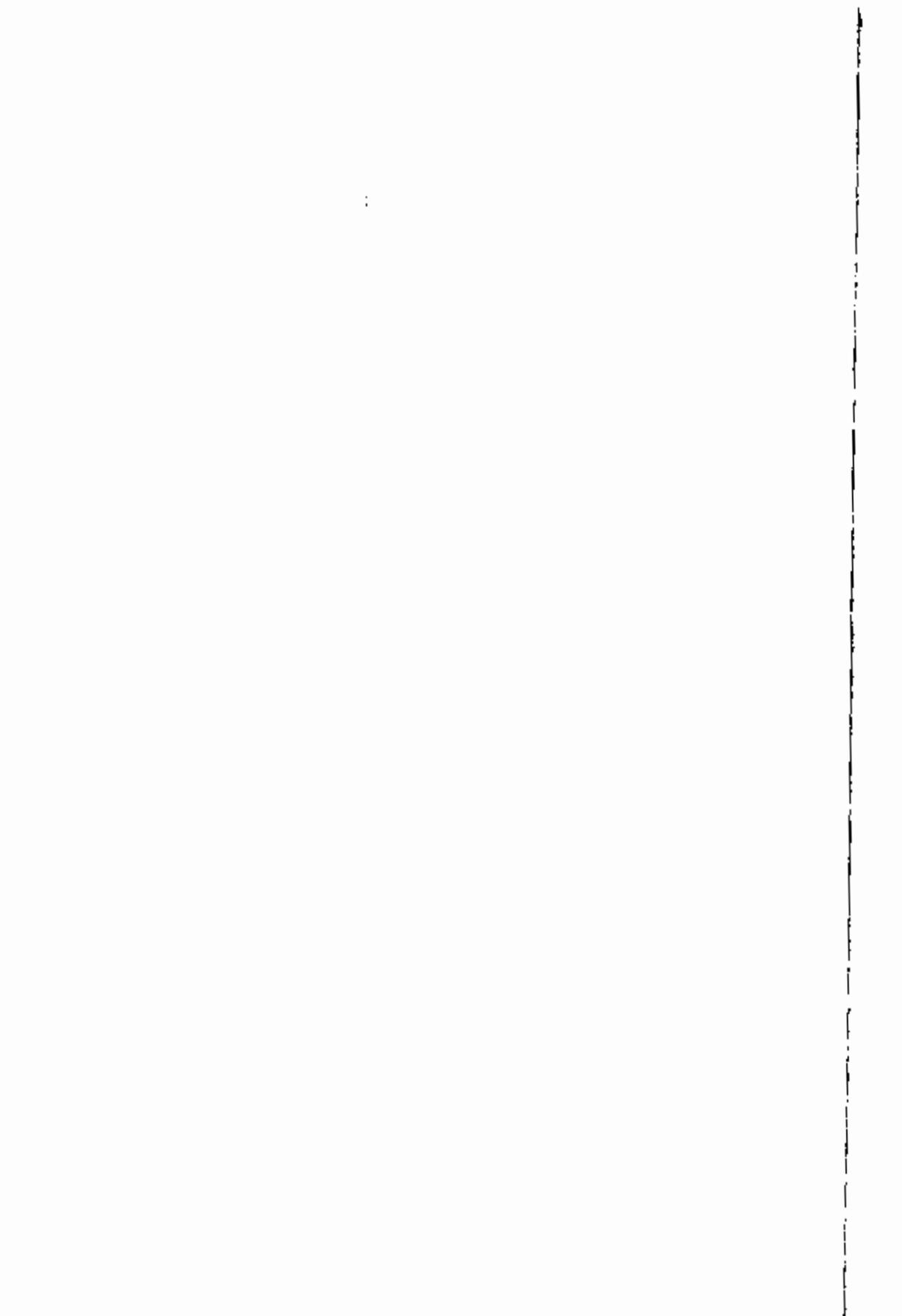
(٤) ندوة أستاذ دبردانا في حديث له حول الموضوع ، الفراغ الموجود في عشرين

« بنتين » .. Melanges d'histoire et d'archéologie t. II page 72

921



AR



أقول أن ذلك التقسيم لم يكن تقسيماً حقيقياً أي أن السلطة المركزية ظلت في فاس ، وظل « النواب » نواباً بيد أنه أثر موت الأخ الأكبر محمد بن إدريس سنة ٢٢١ استأثر كل واحد بامارته على سبيل الاستقلال فيما يظهر ، وهذا يفسر وجود نفوذ للمتصرف بالله الامام داود بن إدريس بتاريخ يراوح بين ٢٢١ وبين ٢٢٩ ، ثم بعد أن انتصب الامام يحيى قام من تلقاء نفسه بتقسيم جديد بين أعمامه وأخواله ، وفي صدرهم الامام داود الذي ما يزال محتفظاً بالحياة . وهكذا اتسعت منطفة داود بن إدريس وشمل المشرق : مشرق مدينة فاس مما جعله يتعين بأحد بنيه على تسيير قلعة مدينة ، وبالأخرى - وهو حمزه - على ناحية وادي سبو ، وقد كان داود في هذا الوقت قد استقر بعدوة الأندلس كعاصمة لذلك « المشرق » ، وصادف الأمر - فيما يلوح - صعود يحيى الثاني للحكم ، في الضفة المقابلة : عدوة القرويين وهنا أخذ داود يضائق يحيى ابن يحيى على « المدينة العظمى » ، ونحن نعلم أن يحيى هذا اضطر للانسحاب من الحكم سنة ٢٥٢ (١) على أثر هفوة أو مناورة ، وكان بعده الامام علي بن عمر الذي لم يستطع مقاومة الخوارج الصفيرية فترك لم عدوة الأندلس وخرج فاراً بنفسه . بينما صمدت عدوة القرويين واستقدمت الأمير يحيى ابن القاسم . فتي لاذ عمر بأذيال الفرار ؟ ومتى تمكن يحيى ابن القاسم من ارضاء رغبة عدوة القرويين ؟ لا يوجد لدينا لحد الآن تاريخ ... ثم هل يمكن أن يبقى داود بن إدريس بعدوة الأندلس « يارداً » في هذه الفترات ؟ لا بد أن نرجع الى « التوجه الأثرية » من جديد فهي تحمل اسم داود وتاريخ ٢٦٣ ، ويمكن أن تضي بعض الضوء على هذه « العشر سنوات القلقة » . ولعل أقرب الفروض يتجلى في أن الامام داود وجد في ملوك يحيى حفيد أخيه محمد ، كما وجد - بعد - في ضعف ابن أخيه علي بن عمر ما يبرر اقتحامه للمدينة العظمى عدوة القرويين حيث - فيما يتأكد - تبنى عام ٢٦٣ مسجد فاطمة أم البنين . ومن يده تسلم الزمام الأكبر يحيى الثالث المعتال سنة ٢٩٢

وهكذا يكون الامام داود دخل في التاريخ منذ سنة ٢١٣ واستمر
- على الأقل - الى سنة ٢٦٣ أى نحواً من خمسين سنة ، فاذا فرضنا أنه كان
في عمره يوم أن أصبح عاملاً لاقليم تازة نحواً من عشرين سنة يكون صاحبنا
قد عمر نحواً من سبعين سنة .

ترى هل تكون هذه هي الكلمة العاملة في الموضوع ؟